الرجوع إلى القرية

أقصوصة واقعية

بقلم الآنسة نعيمة المغربي

هذه القصة يا قارئي ليست من نسج الخيال ومبتكرات القريحة بل قصة واقعية حدثت في إحدى قرى الشام . ولم يزل أهالي تلك القرية والقرى المجاورة يتحدثون بها ويروونها بحزن وكآبة لكل زائر غريب

* * *

هناك على هضبة مرتفعة تقوم قرية صغيرة تطل على سهل فسيح أفرغت عليه الطبيعة أجمل حللها السندسية وأرق غلائلها المبرقشة الزاهية . وقد نثرت بيوت تلك القرية على منحدرات الهضبة نثراً بديعاً حتى يخال الناظر لأول وهلة أن تلك البيوت إنما تزحف رويداً رويداً إلى أحضان ذلك السهل . وفي ذروة هذه القرية الهادئة يقوم بيت صغير يشرف على ذلك السهل الفاتن طليت جدرانه بلون أسمر داكن . ولكنه لم يستطع إخفاء ماقرضت منه نيوب السنين وهشمته يد الخصاصة والعدم

في ذلك البيت الحقير نشأت بطلة قصتنا (وطفاء) وقد نعمت جدرانه بمشاهدة طفولتها المرحة ورنين ضحكاتها الموسيقية . ولم تتجاوز طور الحداثة وتستقبل عهد الشباب حتى أخذ جمالها الفطري يبدو بصورة تخلب الألباب ، فكانت ممشوقة القامة ذات وجه جميل وعينين تفيضان سحراً وعذوبة ، وكأن العناية الإلهية أرادت فوق ذلك أن تسبغ عليها كل نعمها فحبتها بصوت غرد جميل إذا سمعته حسبته سجع الحمام أو شدو المندليب

ويتوسط تلك القرية الهادئة عين ماء يستقي منها أهلها تظللها شجرة توت ضخمة باسقة الأغصان ممتدة الفروع اتخذها صبايا القرية محلاً لاجتماعهن وسمرهن . وعندما تنهض ذكاء من مرقدها تجر ذيلها الذهبي وترسل نورها المنعش إلى حجراتهن الضيقة ، يحملن الجرار على أكتافهن المكتنزة ويسرعن إلى العين للثها من مائها العذب النمير . فهناك يحلو لهن الحديث والسمر ، وتفيض مخيلتهن الخصبة بأحاديث فاتنة من أحاديث الصبا والشباب . أو يشدون غناء ساحراً تسيل من نبراته الرقة والعذوبة والحنين . وكثيراً ما يرقصن رقصهن القروي الفاتن فيؤلفن حلقة ويتشابكن بالأيدي ويتمايلن بأثوابهن الفضفاضة وقدودهن السمهرية تمايل الأغصان اللدنة حركها نسيم السحر . وكانت وطفاء واسطة عقدهن بحكم ما وهبت من ليونة في الجسم وخفة في الحركة ، فضلاً عن ذلك الصوت الشجي الذي كانت بتموجاته الموسيقية تحدوهن إلى الإمعان في الرقص بوجوه تطفح بالبشر والسعادة ، وتفيض بالابتسامات المشرقة العذاب

وكان معظم أولئك القرويات يجئن المدينة القريبة لتصريف حاصلاتهن من أثمار ولبان فيمتلك مشاعرهن ويثير إعجابهن ما يشاهدنه فيها من سحر

وجمال . فتيات بملابس زاهية خلابة حسرن عن صدورهن وصبغن وجوههن بمختلف الألوان . ومركبات تجرى وحدها بواسطة أشباح غير منظورة أو بواسطة طائفة من السحرة والجان . وصناديق خشبية حبس المغنون أنفسهم فيها عن الأعين وأرسلوا منها أجمل الأغانى وأعذب الألحان . وقصور شاهقة فى الهواء . تتلألأ فيها مصابيح الكهرباء فتخالها قطعة هبطت من السماء . وغير ذلك من المشاهد الرائعة التى يرتد عنها الطرف ويقصر عن وصفها اللسان

وبجانب تلك العين وفى ظل شجرة التوت كانت تلك الفتيات الطروبات يتبارين فى وصف سحر المدينة ومفاتنها . وكانت وطفاء قلما تشترك معهن فى أحاديثهن عن المدينة بل كانت تطرق برأسها وتغوص فى لجج الأحلام . كأنها تفكر فى حقارة قريتها وما يحيط بها من عيش زرى وحياة متجهمة عابسة وتقارن بينها وبين جمال المدينة ومناظرها المغرية وحياتها البراقة الضاحكة فتود لو تهجر القرية وتقطع صلتها بتلك المناظر الكامدة الموحشة وتفارق هذه الصور التى اعتادت مشاهدتها صباح مساء

أقبل الشتاء بقارس برده وقد لمس بأصابعه الخشنة شجرة التوت فتناثرت أوراقها وتجردت أفنانها . وأقفرت العين من أليفاتها اللواتى هجرنها وقد قبعن فى زوايا بيوتهن بجانب مواقد النار يصطلين بلهيبها الوردى ودفئها الجميل . وخلت أزقة القرية من أصوات الفتيات ورنين ضحكاتهن وهن غاديات رائحات . وأشد ما أوحش القرية غياب (وطفاء) ذلك البلبل الصداح الذى كان يشدو بصوته السحرى متنقلاً من غصن إلى غصن ومن فنن إلى فنن . فيملأ جو القرية طرباً وسروراً . ومن كان يظن أن اسم وطفاء أصبح بغيضاً إلى أهل القرية إذا ذكر فى مجالسهم تقطبت أساريرهم وتجهمت وجوههم وتمتمت شفاههم بعبارات خافتة مبهمة قد تكون عبارات لعنة وازدراء أو رحمة ورثاء ؟ وقد كان أكثر السكان اهتماماً بخبر وطفاء الفتيات اللواتى كن يتحدثن عن غيابها ، ويتهامسن بما سمعنه من أن أحد شباب القرية نزل المدينة فرآها ترقص فى أحد مسارحها بثياب شفافة وقد صبغت وجهها بمختلف الأصباغ ووزعت ابتساماتها المشرقة على الجمهور الذى كان يسمعها كلمات المديح والإطراء وينثر عليها الرياحين والورود

انزلقت وطفاء فى حياة المدينة الصاخبة واستهواها بريقها الساطع وجوها المفعم بالفتنة والسحر . وملكت أعنة القلوب بصوتها الشجى المطرب ورقصها الفاتن الرشيق ، وأصبحت درة ساطعة اجتذبت بروعتها لب الجماهير وألهبت أكفهم وحناجرهم بالتصفيق والهتاف

لشد ما أخطأت المسكينة فيما اختارته لنفسها من الغوص فى خضم المدينة الزاخر ، والاندفاع فى آذيه المتلاطم ، ولشد ما أخطأت مذ آثرت هذا الجو المملوء بالرياء والملق على جو قريتها الهادئ وحياتها الطيبة ونسيمها العليل . وغاب عنها أن الجمال ظل زائل ، وأن الشهرة التى نالتها مثيلاتها رسم حائل ، والوردة الغضة المطرة ، التى زينت الحسناء بها صدرها سرعان ما تروى فتتناثر ورقاتها وتدوسها الأقدام ، وأن الشجرة الوارفة الظلال التى تثمر ثمراً شهياً يتلذذ المترفون بطعمه ويزينون به موائدهم الأنيقة قد يطرأ عليها الجفاف فتجتثها فأس البستانى من أصولها وتقذف بها فى النار ،

وهكذا كان شأن وطفاء التى سحرتها بهارج المدينة فقد احتواها الجمهور وملّها حسب عادته وأعرض عنها إلى غانية سواها ظهرت حديثاً على المسارح كانت أوفر جمالاً وأنضر شباباً ، وأشد فتنة وإغراء ولما شمرت القروية المخدوعة بأفول نجمها وارفضاض المعجبين من حولها ورأت نفسها وحيدة منبوذة تتقاذفها اللجج وتلعب بها الأهواء عاودها الحنين إلى قريتها وأخذت تستعيد ذكريات حلوة عن ذلك الماضى البعيد عند ما كانت تنعم بحياة هادئة ساذجة فتمنت لو ترجع إلى قريتها وترتوى من مائها العذب وتتفيأ شجرة التوت ذات الأغصان الباسقة والظل المديد ، ولم تلبث أن أصبحت هذه التخيلات حقيقة واقعة فأعدت عدتها وارتدت ثوبها الأحمر القروى الذى احتفظت به كأثر محبوب وأسرعت تنفذ السير إلى قريتها وموطن أسرتها

* * *

تراجعت الشمس بوجه أصفر حزين أمام كتائب الظلام ، واستترت وراء الأفق لتلم شعثها وتعيد الكرة والوثوب ، وتجمعت سحب كثيفة تنذر بعاصفة هوجاء فسربلت السماء بغشاء قاتم مهيب ، وأخذت الرياح تعصف بشدة ، وتملأ الفضاء بعويلها الرهيب ، وقد اختلط صوتها بعواء ذئاب عضها الجوع فخرجت من أوجارها . لتبحث عن فريسة تطفئ سغبها وتعلل بها صغارها . فى ذلك الحين كانت وطفاء قد عجزت عن مواصلة السير وبلغ الإعياء والجوع من جسدها ونفسها مبلغهما وقد رأت من بعد طلائع قريتها كما تبدو بارقة الأمل فى ظلام الحيرة الدامس فخرت على الأرض وجعلت تتراقص أمام عينيها خيالات براقة من صور الحداثة وتمر أمام بصرها المترجرج أطياف ترنو إليها بعطف وحنان ، ثم تغيب فى الأفق البعيد ، وجسم لها الخيال سرباً من الفتيات الحسان يضربن على الدفوف ويشدون الأغاريد . وقد عصبن رؤوسهن بعصائب زاهية مختلفة الألوان وحلين معاصمهن وأجيادهن بأساور وعقود تجتذب بسنائها العيون والأبصار . وتمنطقن بمناطق ذهبية ذات بريق ولألاء . وقد انبرت من بينهن فتاة ذات شعر أسود حالك وقوام لدن ممشوق فأخذت ترقص وتشدو بصوت عذب حنون ، أغرودة تطفح بالحزن وتفيض بالشجون ، حتى إن الرياح الثائرة كفت عن ثورتها وأنصتت بسكون إلى رقيق شجوه وعذب نغماته . وأطل القمر من خلال السجف يرنو بلحظه الساجى ويصيخ بسمعه إلى رقة كلماته وآهاته ، وتمايلت أغصان الشجر طرباً تتهامس عن سحر هذا الصوت وحلو نبراته . ثم لم تلبث تلك الأشباح الراقصة أن ارتفعت فى الفضاء شيئاً فشيئاً فيتأى طيفها وتختفى بين طيات الغمام . وبينما كانت وطفاء بين الحلم واليقظة تتبع تلك الأشباح وتودعها بالنظر الباكى الحزين شعرت بهمهمة خافتة بالقرب منها فأغمضت عينيها واستسلمت إلى غيبوبة حلوة هانئة

وفى اليوم التالى حمل فتيات القرية سلالهن وقصدن المدينة القريبة فإذا بهن بلمح بقايا جثة آدمية نهشتها الذئاب وتبعثرت أشلاؤها هنا وهناك ولم يسلم من عبث الضوارى الجائعة سوى ثوب أحمر ورأس جميل بشعره الأسود وعينيه الساجيتين . وقد افتر ثغره عن ابتسامة عذبة وتطلع ببأس وحنين إلى جهة ... القرية

« دمشق » نعيمة المغربى